

كلمة البروفسور سليم دُكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القديس يوسف في بيروت، خلال حفل تكريم الأب باولو دالوليو Paolo Dall'Oglio اليسوعيّ، في الأوّل من تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٨، في قاعة محاضرات فرانسوا باسيل في حرم الإبتكار والرياضة.

يحتّم عليّ الواجب أن أرحّب بكم، باسم جامعة القديس يوسف في بيروت، وباسم مؤسّسة برونو بووزي Bruno Buozzi، في هذه اللّحظة من بداية حفل تكريم صديق وكاهن ورفيق وأخ. ولكن كلمات الترحيب باسم الصداقة، بمراحلها المختلفة، سأتركها تعبّر عن نفسها من الشخص الذي يتمحور حوله موضوع هذا التكريم، وهو الأب باولو دالوليو Paolo Dall'Oglio. أرحّب بالسيدة إيمانويلا ث. دل ري Emmanuela C. del Re، نائبة وزير الخارجية والتعاون الدوليّ في إيطاليا، وسعادة سفير إيطاليا، وحضرة الأب داني يونس، الرئيس الإقليميّ العامّ للرهبانيّة اليسوعيّة في الشرق الأدنى والمغرب العربيّ، ومترجم الأب باولو السيّد غازي برّو، والأب خليل رحمه صديقه من روما، والكاتب السيّد مصطفى جوني، كما أرحّب بكم جميعاً أنتم الحاضرين هنا والذين أتيتم لتلقوا التحيّة عليه وتكرّموه لما كان يمثّله ولا يزال بالنسبة إلى الكثيرين. لا يمكن لباولو إلا أن يكون مخلصاً، كما كان دائماً، وفيّاً للأرض، والناس، ولرهبنته اليسوعيّة، وديره الأسطوريّ ... قبل خمس سنوات وأكثر، في ٢٩ تمّوز (يوليو) ٢٠١٣، كان رفيقنا اليسوعيّ متّجهاً إلى الحيّ العامّ حيث مقرّ الدولة الإسلاميّة في الرقّة في سوريا، أرضه بالتبنيّ، للدفاع عن القضية والمطالبة بالإفراج عن الصحفيين الذين وقعوا رهائن بين أيدي الجماعة الجهاديّة. منذ ذلك الحين لم يره أحد قطّ.

اليوم، أصدقاء له من إيطاليا، سيادة المطران خالد عكشة، والبروفسور لويدجي ترويانى Luigi Troiani، ومؤسّسة برونو بووزي Bruno Buozzi، من خلال رئيسها السيّد جورجيو بنفينيتو Giorgio Benvenuto، مع جامعة القديس يوسف في بيروت والرهبنة اليسوعيّة في الشرق الأوسط والمغرب العربيّ، إرتأوا أن يكرّموه لما كان يمثّله ولا يزال حتّى يومنا هذا.

كان باولو ولا يزال، بالنسبة إليّ وبالنسبة إلينا، نحن اليسوعيين في الشرق الأوسط، رفيقًا، لا بل أخًا يسوعيًا، وبالتأكيد لم يكن هذا سهلًا أحيانًا بسبب أفكاره والتزامه في كلّ الإتجاهات. لكننا كنّا ولا نزال نكنّ له الإعجاب لطبعه، وصوته الجهور، وإصراره على تغيير مسار الأمور، وإعادة إحياء ليس دير مار موسى الحبشيّ فحسب، المغمور تحت الأنقاض منذ قرون، ولكن رفع حياة الرهبنة إلى حياة نسكيّة مفقودة وإلى حياة كنسيّة يسيّرها الروتين وتسودها المظاهر.

كان باولو دالوليو صوتًا يدوي، صوتًا جهورًا كان يزعجنا أحيانًا، مثل صوت بعض الأنبياء الذين كان مصيرهم أن يتكلّموا، ويرفعوا أصواتهم، ويصرخوا ضدّ الظلم ومن أجل الخير. إنّه صوتٌ يدعو إلى تحويل القلوب والعقول، ويعلن عن دنوّ الأزمنة الجديدة لأنّ الكلمة الإلهيّة اقتربت وستولد في قلوب الكثيرين. في نهاية الأمر، كان صوته مخيفًا ولم يعد مقبولاّ لأنّه كان يُعيد النظر في السلوكيّات والممارسات الظالمة. من ممّا لا يتذكّر ذلك الصوت ذات النبرة العميقة الذي كان ينهال على سامعيه بالكلمات النافذة، سواء باللّغة الغربيّة أو باللّغة العربيّة التي كانت بالنسبة إلى الأب باولو موضع تقدير ومستحبّة كثيرًا، لأنّها كلمة الآخر المختلف. إنّه صوتٌ جذريّ لا يقبل الحلول الواهنة. أليس هو من قال : "لا أريد أن أعيش حياة تكون مختلفة عن كونها عطاءً جذريًا لمدى الحياة، وحتى الموت".

خلال أمسية جمعتنا معًا وكنا خمسة أو ستّة من اليسوعيين، كان الأب باولو يشارك كالمعتاد في المناقشة وبحماس: كنّا نتبادل أطراف الحديث بالفرنسيّة ولكنّه كان يتحدّث ويعبّر عن قصد باللّغة العربيّة، من أجل التمرّس في التحدّث بها من ناحية ومن أجل نقل رسالة من ناحية أخرى. إذا كنتم تريدون أن تعيشوا في هذا العالم العربيّ وأن تكونوا حاضرين لمواجهة صعوباته ومآسيه، وساعات فرحه وحزنه، يتوجّب عليكم التحدّث مع شعوب هذا العالم، وإظهار تضامنكم معهم والتحدّث بلغتهم، اللّغة العربيّة، بواسطة اعتمادها كلغة مخاطبة، وهذا الأمر كان يُزعج بعض الغربيّين بيننا.

كان باولو دالوليو محبًا للآخر. والسؤال الكبير الذي يطرحه هو السؤال الذي لم يتوقّف أبدًا من طرحه وهو التالي : ماذا يقول الإسلام للمسيحيّين ؟ ومن هنا يأتي السؤال : إلّا ما يجذب الإسلام المسيحيّة ؟ على إثر شارل دو فوكو Charles de Foucauld ولويس ماسينيون Louis Massignon، وهما

من بين معلّميه الروحيين العظماء، كان باولو يظنّ أنّ الدين الإسلاميّ، من خلال السرّ الذي كان يطرحه على المسيحيّين، كان يدفع الكنيسة نحو منحى جذريّ في الاقتداء بالمسيح، نحو المزيد من التواضع، وروح الإستقبال والخدمة. أسّشهد بما قاله : "إنّ التوجّه نحو الآخر هو حجّ، أكثر منه حملة تبشيريّة أو صليبيّة". إنّ التبادلات اليوميّة مع العديد من المسلمين الذين كانوا يتوجّهون إلى الدير، والندوات القائمة على العلاقات بين الأديان، والحياة اليوميّة، شهدت لهذا الحوار المثمر.

دعونا نتذكّر أنّ باولو، على الرغم من صوته الساخط الجهور والقويّ، لم يكن إلا رجل حوار بكلّ ما تحمله كلمة "حوار" من تناغمات. وفيما يتعلّق بالحرب السوريّة، كان يقول : "لأسبابٍ تتعلّق بالالتزام في حياتي، هذه الحرب الأهليّة لا تهدّد فقط الظروف الحياتيّة المتدنّية التي يعيشها المسيحيّون الشرقيّون، إخوتي الذين يجدون أنفسهم عالقين في فخّ بين معسكرين، ولكنها حربٌ أهليّة تمرّق نفسي (...). هذه الحرب الأهليّة لا تُطاق بالنسبة إليّ. أودّ أن أفعل شيئاً لإيقافها. (...). يجب أن تتحمّل الأمّة الإنسانيّة جراح الأمّة المسلمة وقلقها، برحمة وتضامن، لأنّنا جميعاً ننتمي إلى هذا الكوكب السيّار الهشّ. إنّ عدم حمل ثقل ما نزرع تحت وطأته معاً يجعل الحياة ثقيلة ولا تُحتمل". حتّى النهاية، كان باولو يعتقد أنّ الكلام والحوار يمكنهما أن يكونا سلاحين فعّالين حتّى في مواجهة أولئك الذين كانوا يرفضونهما.

أصدقائي الأعزّاء، سنلقى اليوم عدّة خطابات عن باولو وسنُدلى الشهادات حوله وذلك إنطلاقاً من حياة عاشها بالكامل وبعُمق حتّى بذل الذات التامّ. ومع ذلك، فإنّني أودّ أن أضيف أيضاً بضع كلمات وأقول بأنّ قوّة باولو وآنيته تكمن في أنّه يتركنا مع أسئلة نطرحها، لأنّ حياته كانت ولا تزال تساؤلاً لكلّ واحد منّا. كيف نعيش معاً ولماذا نعيش معاً ؟ ما هي الأصالة التي تتمتع بها الديانتان المسيحيّة والإسلاميّة؟ وما هي العلاقة الحقيقيّة التي يمكنها أن تنشأ بين الديانتين؟ كيف يتمّ التبشير بالإنجيل والاندماج الثقافيّ للآيمان المسيحيّ في الوسط الإسلاميّ؟ ما هي القيمة اللاهوتيّة لنبوءة محمّد من وجهة نظر مسيحيّة؟ في مواجهة هذه الأسئلة وهذه التساؤلات، كانت وجهة نظر باولو على المدى الطويل تتمثّل في وضع الأسس على الطريق التي كان يدعوها مسار الرجاء، ذلك المسار الذي سيجعله الالتزام بالآخر المختلف والقريب شرعيّاً وواقعياً. هذه الأسئلة وأجوبة الإنسان الذي لا يملك إلا الرجاء هي اليوم أسألنا التي

تضعنا أمام السؤال الجذري الذي نطرحه على أنفسنا : إختفى في "الرقّة"، لكن ألا يزال على قيد الحياة؟  
من المؤكّد أنّه لا يزال على قيد الحياة لأنّ رجاءه كان رجاء البشر الذين لا يموتون أبداً، ولكنّهم يعيشون  
إلى الأبد بالمحبّة التي لا نهاية لها.